

الحلقة الواحدة والعشرون

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بدراسة سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

وفي اللقاء الماضي تابع سليمان الحكيم ملاحظاته العامة حول الحياة، فتحدث عن أهمية التمتع بالخيرات التي وهبها الله لنا. وأن ما نحصل عليه من عطايا مصدره الله، ولهذا علينا أن نشكر الله على خيراته، لا أن نتذمّر ونشكو.

لعل السؤال الذي يواجهنا الآن هو: هل الأموال والممتلكات قادرة لوحدها على جعلنا نتمتع بالحياة؟ أولاً يوجد كثيرون من أصحاب الأموال والممتلكات يجدون أنفسهم عاجزين عن التمتع بالحياة؟ فما هو السر يا ترى؟ أجابنا سليمان الحكيم عن هذه التساؤلات قائلاً: « رأيت شراً تحت الشمس خيم بثقله على الناس: إنسان رزقه الله غنىً وممتلكاتٍ وكرامةً، فلم تفتقر نفسه إلى شيءٍ رغبت فيه. ولكن الله لم يُنعم عليه بالقدرة على التمتع بها، وإنما تكون من حظ الغريب. هذا باطلٌ، وداءٌ خبيثٌ» (الجامعة ٦: ١-٢ التفسيرية).

ما هو السبب يا ترى في عدم قدرة هذا الإنسان الذي رزقه الله غنىً وممتلكات، على التمتع بكل ما أُعطي له؟ يبدو واضحاً من هذه الآيات التي قرأناها، أن السبب الرئيسي يعود إلى بعد هذا الإنسان الكامل عن الله. فهو يظن أن الحياة هي مجرد الأمور المادية فقط، أي جمع الأموال واقتناء المزيد من الممتلكات. لكن ما نفع الممتلكات والأموال والخيرات الكثيرة، إذا لم يستطع الإنسان أن يتمتع بها؟ ولهذا أعاد الحكيم هنا تكرار القول إن هذا أمر باطل، أي لا نفع ولا جدوى منه. إذ تنتقل ثروة هذا الإنسان بالرغم من إرادته إلى الآخرين لكي يتمتعوا بها.

إن هذا يؤكد لنا أن الكنز الحقيقي الذي يجب أن يمتلكه الإنسان أولاً، هو علاقته مع الله خالقه، وأن يعيش الحياة الروحية الصحيحة. إن الأمور المادية ليست هي الأساس في حياتنا، بل علاقتنا مع الله، وتمتعنا بالشركة معه، وعندها نستطيع أن نتمتع بالأموال المادية التي يعطينا إياها الله.

مستمعي الكريم: هل نقيّم الحياة بالعمر الطويل الذي يعيشه الإنسان؟ أي كلما عاش سنوات أكثر، معنى هذا أنه تمتع بالحياة أكثر وبصورة أفضل. لكن هل هذا يصح على البشر بشكل عام؟ أم أن الواقع أمر مختلف بالكلية؟ أجابنا سليمان الحكيم عن هذه التساؤلات قائلاً: « ربّ رجل يُنجب مئة ولدٍ ويعيش عمراً طويلاً حتى تكثُر سنو حياته، لكنه لا يتمتّع بخيرات الحياة ولا يُثوى في قبر. أقولُ إن السقطَ خيرٌ منه! لأنه يُقبل إلى الدنيا بالباطل، ويُفارق في الظلام ويحتجب اسمه بالظلمة. ومع أنه لم يرَ الدنيا ولا عرف شيئاً، فإنه ينالُ راحةً أكثرَ من الذي يعيش ألفي سنة، ولكنه يُخفق في الاستمتاع بالخيرات. ألا يذهب كلاهما، في نهاية المطاف، إلى موضع واحد؟» (الجامعة ٦:٣-٦ التفسيرية).

أراد الحكيم أن يقول لنا هنا: ما نفع الإنسان الذي يعيش سنين طويلة، لكنه يخفق في التمتع بالخيرات التي وضعها الله أمامه. إن السقط الذي كان في رحم الأم ثم أجهضته، خير من ذلك الشخص، بالرغم من أن السقط لم تر عيناه النور. أجل مستمعي، إن حياة الإنسان لا تقاس بالسنوات الطويلة التي يقضيها على الأرض، بل بمعرفته كيف يستطيع أن يستمتع بكل ما يعطيه الله له من خيرات. وهكذا يقضي أيامه متمتعاً بالحياة، وناظراً إلى المستقبل نظرة إيجابية متفائلة، فيعيش الحياة الحقّة.

إن الأمر إذن بالكيف وليس بالكم. أي بكيفية الحياة التي يعيشها المرء، وليس بعدد السنين التي يقضيها. فكم من إنسان عاش حياة قصيرة، لكنه عرف كيف يتمتّع بها، وكانت مليئةً بالإنجازات. وكم من إنسان في المقابل، عاش سنين طويلة لكنه عجز عن التمتع بالحياة حقاً!

لعلّ السؤال الآن: كيف بإمكان المرء أن يتمتّع بالحياة حقاً؟ تخبرنا كلمة الله أن حياتنا « ما هي إلا بخارٌ يظهر قليلاً ثم يضمحل». وكتب النبي موسى كليم الله قائلاً: « أيام سنينا هي سبعون سنة. وإن كانت مع القوة فثمانون سنة، وأخرها تعب وبلية. لأنها تُقرض سريعاً فنطير» (مزمور ٩٠:١٠). فإذا كانت حياتنا بالنسبة للأبدية التي لا نهاية لها، مجرد بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل، وإذا كانت سنوات عمرنا مهما طال، مليئةً بمعظمها بالتعب والمصائب والأحزان، وهي تمضي بسرعة هائلة. فماذا ترانا نفعل لكي نستفيد منها، ونتمتّع بأيامها؟

عاد النبي موسى فكتب قائلاً: «إحصاء أيامنا هكذا علّمنا فنوتى قلب حكمة» (مزمور ٩٠:١٢). لقد طلب موسى من الله أن يعطينا قلب حكمة، لكي نعرف كيف نستفيد من أيامنا، ونستطيع بالتالي أن نتمتّع بها حقاً. فأين تكمن هذه الحكمة يا ترى؟

كتب سليمان الحكيم في سفر الأمثال قائلاً: « بدء الحكمة مخافة الرب، ومعرفة القدوس فهم» (أمثال ٩: ١٠). إذن إن بداية الحكمة تكون بأن نعرف الله حق المعرفة، وأن تكون لنا علاقة حيّة معه. هنا تكمن الحكمة، لأن الله هو مصدرها، وعلينا أن نعتمد عليه بالكلية لكي نستمدّها. وعندما ندرك هذه الحكمة نستطيع أن نعيش أيامنا، معتمدين على الله خالقنا. وليس هذا فحسب، بل نعرف كيف نتمتع بحياتنا سواء كانت قصيرة أم طويلة. لأن اتكالنا ورجاءنا سيكون على الله، وليس على الأمور المادية.

هل تعلم مستمعي كيف بإمكانك معرفة الله حقاً؟ لقد أرسل الله المخلص المسيح، الذي هو كلمة الله الأزلي، لكي يفيدينا من خطايانا، وليعرفنا على الله حق المعرفة. فهل تراك تؤمن بهذا المخلص الفريد؟ وعندها تستطيع أن تعرف الله وتتمتع بالشركة الحيّة معه.